

كمال الدين وتمام النعمة

[580] وهو من الموت على يقين، ومن الحياة على قلعة، وكيف لا يكون غناؤها فقرا وليس يصيب أحد منها شيئا إلا احتاج لذلك الشئ إلى شئ آخر يصلحه وإلى أشياء لا بد له منها. ومثل ذلك أن الرجل ربما يحتاج إلى دابة فإذا أصابها احتاج إلى علفها و قيمها ومربطها (1) وأدواتها، ثم احتاج لكل شئ من ذلك إلى شئ آخر يصلحه وإلى أشياء لا بد له منها، فمتى تنقضي حاجة من هو كذلك وفاقته ؟ وكيف لا يكون فرحها ترحا وهي مرصدة لكل من أصاب منها قرة عين أن يرى من ذلك الامر بعينه أضعافه من الحزن، إن رأى سرورا في ولده فما ينتظر من الاحزان في موته وسقمه وجايحة ان أصابته أعظم من سروره به، وإن رأى السرور في مال فما يتخوف من التلف أن يدخل عليه أعظم من سروره بالمال، فإذا كان الامر كذلك فأحق الناس بأن لا يتلبس بشئ منها لمن عرف هذا منها. وكيف لا يكون صحتها سقما وإنما صحتها من أخلاطها وأصح أخلاطها وأقربها من الحياة الدم، وأظهر ما يكون الانسان دما أخلق ما يكون صاحبه بموت الفجأة، والذبة والطاعون (2) والاكلة والبرسام، وكيف لا يكون قوتها ضعفا وإنما تجمع القوى فيها ما يضره ويوبقه، وكيف لا يكون عزها ذلا ولم ير فيها عز قط إلا أورث أهله ذلا طويلا، غير أن أيام العز قصيرة، وأيام الذل طويلة، فأحق الناس بدم الدنيا لمن بسطت له الدنيا فأصاب حاجته منها فهو يتوقع كل يوم وليلة وساعة وطرفة عين أن يعدي على ماله فيحتاج، وعلى حميمه فيختطف وعلى جمعه فينهب، وأن يؤتى بنيانه من القواعد فيهدم، وأن يدب الموت إلى حشده فيستأصل، ويفجع بكل ما هو به ضنين. فأذم إليك أيها الملك الدنيا الاخذة ما تعطي، والمورثة بعد ذلك التبعة، السلاية

(1) المربط - بفتح الباء وكسرهما - موضع ربط الدواب. (2) الذبة - بضم الذال وفتح الباء، والعامية تسكن الباء -: ورم حار في العضلات من جانب الحلقوم التي بها يكون البلع. وقال العلامة: وقد يطلع الذبة على الاختناق. والشيخ لا يفرق بينهما، وقيل هي ورم اللوزتين (بحر الجواهر). (*)